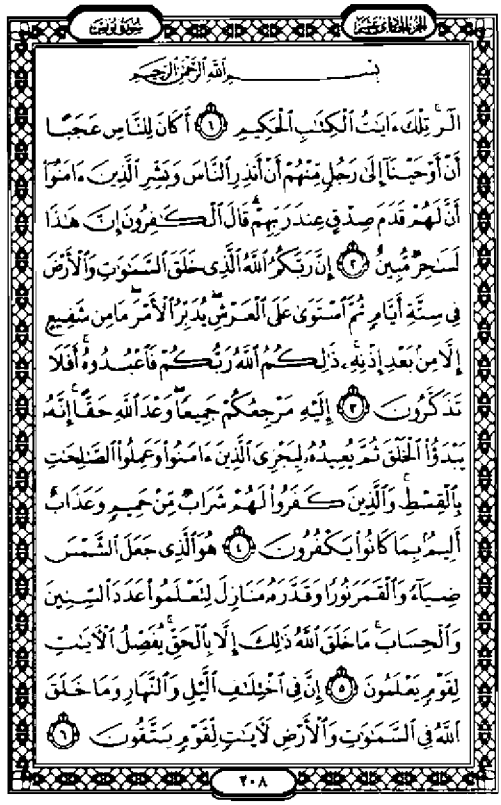

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

٢٠٨

سورة يونس

معانى الكلمات :

الر : إشارة إلى بلاغة القرآن وإعجازه وتحديه للعرب .

قدم صدق : منزلة رفيعة .

استوى على العرش : استواء يليق به سبحانه .

بالقسط: بالعدل .

حميم : ماء قد بلغ غاية الحرارة .

قدّره منازل : صيّر القمر ذا منازل يسير فيها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد بتقرير عقيدة الوحى بشهادة الكتاب الموحى به .

٢ ـ أن نعلم أنه لا شفاعة يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن الله .

٣ ـ أن نتدبر فى ملكوت الله ونشكره على إبداعه فى خلقه .

المحتوى التربوى :

بدأت هذه السورة بثلاثة حروف مقطعة كما بدأت سور: البقرة وآل عمران والأعراف ، وتمثل مبتدأ خبره : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، ثم يأخذ السياق فى عرض عده أمور تتجلى فيها الحكمة التى أشير إليها فى وصف الكتاب . من الوحى إلى الرسول ﷺ ؛ لينذر الناس ويبشر المؤمنين والرد على المعترضين أن يوحى الله إلى بشر ، إلى خلق السموات والأرض وتدبير الأمر فيها ، إلى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب، إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير .

والآيات فى بدايتها تقرر صفة لله الحكيم الذى يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض فى هذه السورة جوانب منها صادقة باقية نجد مصداقها فى كل جيل . والحكيم الذى ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله فى صفحة الكون وتضاعيفه . فى السماء والأرض وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار ، وفى مصارع القرون الأولى ، وفى قصص الرسل فيهم .. وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ويستنكر الله فى الآيات هذا العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحى منذ كانت الرسل ، فلقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة « الإنسان » عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة « الإنسان » الذى يتمثل فيهم. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسولاً لله ، وأن يتصل الله به - عن طريق الوحى ـ فيكلفه هداية الناس ، إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ، ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص .

والهدف من هذا الوحى - أو الاتصال : إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة ، وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهى الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعاً . فكل الناس فى حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير : والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . مع وضوح قضية الوحى على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمراً عجيباً ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ولقد كان يختلط عندهم الوحى بالسحر ؛ لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها .

ثم يناقش السياق القضية الأساسية الكبرى فى العقيدة . قضية الربوبية ويلمسها بمنطقها الفطرى البسيط المباشر ؛ فالله هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ، وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل ، وقدر اختلاف الليل والنهار .. هذه الظواهر البارزة التى تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها التدبر الواعى المدرك أن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه ..

أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التى يعللها الذهن باردة جافة ، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ !

إن هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه . شمسه وقمره – ليله ونهاره ، وما فى السموات والأرض من خلق ومن أمم ومن سنن ومن نبات ومن طير ومن حيوان كلها تجرى على تلك السنن .

وربكم الذى يستحق الربوبية والعبودية هو هذا الخالق الذى خلق السموات والأرض خلقهما فى تقدير وحكمة وتدبير ، والأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى ، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ؛ وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح .

ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الخليق بالربوبية ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فهو الذى يستحق الدينونة له دون سواه ..﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة والعبادة هى العبودية ، والدينونة ، والاتباع والطاعة ، مع إفراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الخصائص كلها ؛ لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

ويعرض الله مشاهد الإبداع فى الكون فى خلق الشمس والقمر مؤكداً أنه ما خلق كل هذا عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة ، وإنما خلقهما بالحق الثابت الراسخ ، وهذه المشاهد التى تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر ، إن فى ذلك كله آيات لقوم يتقون ، وتستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص ، وجدان التقوى الذى يدع هذه القلوب تتأثر بمجالى القدرة ومظاهر الإبداع المعروض للأنظار والأسماع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ القرآن الكريم محكم واضح ، لا يدخله شك ، ولا كذب ولا تناقض .

٢ ـ لا يشفع عند الله شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له الله فى الشفاعة .

٣ ـ كل ما خلقه الله – سبحانه وتعالى – فى السموات والأرض فى غاية الإبداع والحكمة، وعلينا أن نشغل أنفسنا بالتفكير فى هذه المخلوقات ؛ لتقوية إيماننا بعظمة الله وقدرته .

٤ ـ بشرى لأهل الإيمان والعمل الصالح بما أعد لهم عند ربهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢٠٩

معانى الكلمات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون لقاء الله .

دعواهم : دعاؤهم .

لقضى إليهم أجلهم : لأهلكوا وأبيدوا

فى طغيانهم : فى تجاوزهم الحدَّ فى الكفر .

يعمهون : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الضر : الجهد والبلاء والشدة .

دعانا لجنبه : استغاث بالله ليكشف عنه الضر .

القرون : الأمم كقوم نوح وعاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإيمان بالله والرضا بقضائه يكون سبباً فى دخول الجنة .

٢ ـ أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا أو الغفلة عن آيات الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن نستشعر لطف الله وحلمه فى إمهاله للناس ، وعدم عجلته بدعائنا الشر .

المحتوى التربوى :

بعد هذا العرض لصفحة من صفحات الكون المنظور وآيات الله فيه ، هناك من يرون كل هذا ، ثم لا يتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ؛ لأن البشرية لم تبلغ فيه كمالها المنشود ، والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلون ، لا تحرك فيهم قلباً يتدبر ، ولا عقلاً يتفكر ، هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشرى ، ولن يصلوا إلى الجنة التى وُعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حين يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحمده فى رضاء مقيم .

وفى الناحية الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا ، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان تحقيقاً لأمر الله بعمل الصالحات ، وانتظاراً للآخرة الطيبة وطريقها هو الصالحات ، هؤلاء يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذى يصل ما بينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق ، ويهديهم إلى الخير بوحى من حساسية الضمير وتقواه هؤلاء يدخلون الجنة .

وفى الجنة أقصى ما يشغل أهلها هو تسبيح الله وحمده أولاً وأخيراً ، يتخلل ذلك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبين ملائكة الرحمن ، وينطلقون من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ، ويرتفعون عن ضروراتها وحاجاتها ، ويرفرفون فى آفاق الرضا والتسبيح والحمد والسلام .

بعد ذلك يواجه السياق القرآنى تحديهم لرسول الله ﷺ ، وطلبهم تعجيل العذاب الذى يتوعدهم به ، ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة . ويرسم لهم مشهدهم حين يصيبهم الضر فعلاً ، فتتعرى فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها ، فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة ، ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ، ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هى للابتلاء وبعدها الجزاء .

والله ـ سبحانه ـ يقول لهم : إنه لو عجل لهم بالشر الذى يتحدون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذى يطلبونه..لو استجاب الله لهم فى استعجالهم كله لقضى عليهم،وعجل بأجلهم! ولكنه يستبقيهم لما أجلهم له ، ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاءه سيظلون فى عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم .

وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر تكشف عن التناقض فى طبيعة هذا الإنسان الذى يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه .

يقول صاحب الظلال : « إنها صورة مبدعة لنموذج بشرى مكرور ، وإن الإنسان ليظل مدفوعًا مع تيار الحياة ، يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر فى إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً . وساعات الرخاء تُنسى ، والإحساس بالغنى يُطغى ، ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

وبمثل هذه الطبيعة .. طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى إذا ارتفع انطلق واستمر المسرفون فى إسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فماذا كانت نهاية الإسراف فى القرون الأولى ؟ لقد انتهى بهم الإسراف وهو الشرك - إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها فى الجزيرة العربية فى مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ، وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان ، فلقوا جزاء المجرمين .

وإذْ يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون فى مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه .

ويقول **صاحب الظلال** : « إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التى يقضيها على الأرض ، وبكل شىء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق فى متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذى هو مسؤول عنه وممتحن فيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحذير من الغفلة عن التفكير فى مخلوقات الله وآياته الكونية ، والركون إلى متع الدنيا الفانية .

٢ ـ الإيمان سبب فى الهداية يوم القيامة إلى الصراط المستقيم وإلى الجنة ونعيمها .

٣ ـ تحية أهل الجنة السلام ، ونطقهم دعاء وتسبيح وحمد ؛ لما يرون من تزايد نعم الله - تعالى - عليهم .

٤ ـ حلم الله - تعالى - ولطفه بعباده ، ومن ذلك : أنه لا يستجيب دعاءهم بالشر على أنفسهم أو غيرهم ويمهل الظالمين منهم ، فلا يعجل لهم بالعقاب .

٥ ـ الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويضرع إليه ، فإذا أنجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه .

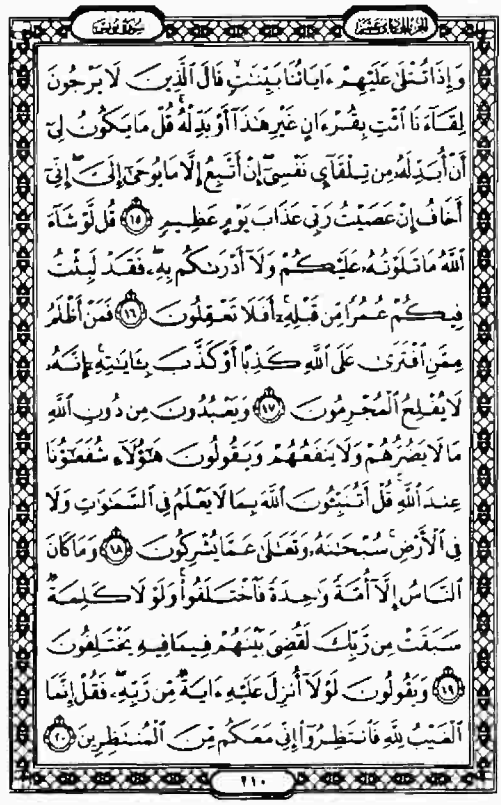
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ ۖ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾
٢١٠

معانى الكلمات :

لا أدراكم به: لا أعلمكم الله به بواسطتى .

لبثت فيكم : مكثت بينكم .

عمراً : زمناً طويلاً .

لا يفلح المجرمون : لا يفوزون بمطلوب .

اختلفوا : تفرقوا شيعاً وأحزاباً .

لقُضى بينهم : لعجل عقابهم فى الدنيا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتقد أن القرآن كلام الله ، الموحى إلى رسوله ﷺ ، المتعبد بتلاوته لا يتبدل ولا يتغير .

٢ ـ أن نحذر الكذب على الله أو تكذيب آياته ، فإن ذلك دأب المشركين .

٣ ـ أن نعتقد أن الغيب كله لله لا يطلع عليه أحداً إلا بإذنه لحكمة يعلمها .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتناول السياق عرض نماذج من أعمال المشركين بعد استخلافهم ، فلقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟

طلبوا من الرسول ﷺ قرآناً غير الذى يتلوه ، وطلبوا تبديل بعض أجزائه ، وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية . فما على محمد إلا أن يقبل التحدى ويؤلف قرآنا آخر ، أو يؤلف جزءاً مكان جزء ؟ !

ويقول **صاحب الظلال** : إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفى بمطالب هذه البشرية فى حياتها الفردية والجماعية ، ويهديها إلى طريق الكمال فى حياة الأرض بقدر ما تطيق ، ثم

إلى الحياة الأخرى فى نهاية المطاف ، ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

ويأمر الله رسوله ﷺ بالرد عليهم بأن الأمر ليس لعبة لاعب ولا مهارة شاعر ، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ، فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه ، وإن هو إلا مبلغ متبع الوحى الذى يأتيه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

إنه وحى من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك ، ولو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . قل لهم هذا ، وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمراً كاملاً من قبل الرسالة ـ أربعين سنة . فلم تحدثهم بشىء من هذا القرآن ؛ لأنك لم تكن تملكه ، لم يكن قد أوحى إليك ، ولو كان فى استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذى قعدك عمراً كاملاً ؛ ألا إنه الوحى الذى لا تملك من أمره شيئاً إلا البلاغ .

وقل لهم : ما كان لى أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول : إنه أوحى إلى الله إلا بالحق : فليس هنالك ما هو أشد ظلماً ممن يفترى على الله كذباً ، أو من يكذب بآيات الله . وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله .

فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ **يقول صاحب المنار** : إن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتابًا ، ولم يلقن من أحد علمًا ، ولم يعرف تشريعًا ، ولم يمارس أساليب البيان من شعر ونثر لا يمكنه أن يأتى من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز .

إنهم المشركون والضالون فى كل وقت لا يفتئون عن إثارة الشبه على المشركين .

ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم فى الأرض ، غير هذا الهزل فى طلب قرآن جديد . فعبدوا الأوثان التى لا تقدر على نفع ولا ضّر ، ويدعون أنهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له – وهو العالم المحيط بجميع المعلومات – لم يكن موجوداً فكان خبراً ليس له مخبر عنه ، ويرد عليهم بأسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذى يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقبل أن يمضى فى عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض ، والفطرة فى أصلها كانت على التوحيد ، ثم جدَّ الخلاف بعد حين ، وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعاً إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وبعد هذا التعقيب يمضى فى الاستعراض لما يقول المستخلفون : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أى من الآيات التى اقترحوها ـ تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة من الآيات ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أى هو مختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به يعنى : أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو.

ويقول صاحب الظلال بمناسبة قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ : « فكل الآيات التى يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله المبثوثة فى تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل فى الأمم قبلهم غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية وطبيعة معجزتها ؛ فهى ليست معجزة وقتية تنتهى بمشاهد جيل ، إنما هى المعجزة الدائمة التى تخاطب القلب والعقل فى جيل بعد جيل .

ويوجه الله رسوله ﷺ أن يحيلهم على الله الذى يعلم ما فى غيبه ، ويقدر إن كان سيبرز لهم خارقة أو لا يبرز : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

وهو جواب فى طيه الإمهال وفى طيه التهديد ، وفى طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية فى جانب الألوهية ، فإن محمداً ﷺ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئاً فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئاً ، فأمرهم موكول إلى الله ، وهكذا يتحدد مقام العبودية فى جانب مقام الألوهية ، ويخط خطًا بارزًا فاصلًا بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الرسول ﷺ متبع لما يُوحى إليه من ربه ، لا يغير ولا يبدل من عند نفسه شيئا ، ولم يكن له قبل نزول الوحى علم بما فى هذا الكتاب .

٢ـ لا يمكن أن يكون القرآن الكريم من كلام البشر ؛ لأنه كتاب عظيم اشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ، والفصحاء والبلغاء ، وأخبر بما فى النفوس وما يحدث فى المستقبل وغير ذلك من أوجه الإعجاز المختلفة .

٣ ـ لا أحد أظلم من رجلين رجل يكذب على الله ـ تعالى ـ وآخر يكُذب بآيات الله تعالى .

٤ ـ إبطال دعوى المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة .

٥ ـ الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله ومن علَّمه الله شيئًا منه ، وهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ۖ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

٢١١

معانى الكلمات :

ضراء مستهم : مصيبة أصابتهم .

لهم مكر : دفع وطعن واستهزاء .

الله أسرع مكرًا : الله أسرع جزاءً وعقوبة .

يبغون : يُفسدون .

زخرفها : نضارتها وبهجتها .

حصيدًا :كالنبات المحصود بالمناجل .

لم تغن : لم تمكث زروعها .

دار السلام : الجنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان ضعف الإنسان وفقره إلى الله ـ عز وجل ـ وحاجته إليه فى حفظ حياته وبقائه إلى أجله .

٢ ـ أن نخلص الدعاء لله فى حال الرخاء والشدة فهو أصل العبادة ومخها .

٣ ـ بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا فى نضرتها وسرعة زوالها .

المحتوى التربوى :

بعد أن انتهى السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر حين يذوقون الرحمة والنعمة بعد الضر ، كما تحدث عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه ، ويضرب لهم مثلاً مما يقع فى الحياة يصدق ذلك .

يقول صاحب الظلال : «عجيب هذا المخلوق الإنسانى لا يذكر الله إلا فى ساعة العسرة ولا يثوب إلى فطرته ، وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ، ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن ، مجلوة ـ دائماً ـ بجلاء الإيمان .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ .

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه ، فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا : إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا ، وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك فجاءت الرسول ﷺ تناشده الرحمة أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ثم مكرت قريش بآية الله ، وظلت فيما هى فيه ! وهى ظاهرة مطردة فى الإنسان ما لم يعصمه الإيمان .

ولكن الله أسرع مكراً وأقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، فلا شىء منه يخفى ، ولا شىء منه ينسى ، ورسل الله ـ عز وجل ـ تكتب ؛ ولا ندرى ولا نعرف عن ذلك شيئاً لأنه غيب ، فعلينا أن نتركه دون تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح .

ويرسم السياق مشهداً حياً يقرر فيه قدرة الله المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون فى قوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ويصور مشهدهم وهم فى الفلك ، وهى تتحرك بهم فى رخاء ، وهم منعمون فى سرور شامل ، وفجأة تأخذ الغارين الآمنين الفرحين ، ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، يلاطمها الموج ويدور بها كالريشة الضائعة فى الخضم ، فلا مجال للنجاة عندئذ فقط ، وفى وسط هذا الهول المتلاطم ، تحيا فطرتهم وتطهر مما ألم بها من أدران وتنبض الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه .

﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج الهادر ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابس فماذا ؟ ! ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

قال الألوسى بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ : « هذا وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى . وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر : ٤٣) ، ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح : ١٠) .

ويقول صاحب الظلال : « والناس حين يبغون هذا البغى يذوقون عاقبته فى حياتهم الدنيا قبل أن يذوقوا جزاءه فى الدار الآخرة .يذوقون هذه العاقبة فساداً فى الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضار به .

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم لله ، وإما أن يتعبدهم الطغاة ، والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها فى الأرض ، وربوبية الله وحدها فى حياة البشر ، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة ، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد ، ودنس المستنقع ، وامتهان الكرامة ، وفساد المجتمع ، ودناءة الحياة !

ويضرب الله ـ عز وجل ـ لهم مثل الحياة الدنيا التى لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى .

هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر ، وها هى ذى الأرض كأنها عروس مجلوة ، وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، وفى وسط هذه السطوة ، وفى غمرة هذا الاطمئنان الواثق ، وفى ومضة ، وفى خطفة : ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ .

وكأن الله يقول لهم هذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ؛ ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع ، هذه هى لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار .

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ودار السلام التى يدعو إليها الله ، ويهدى من يشاء إلى صراطه المؤدى لها . حينما تنفتح بصيرته ، ويتطلع إلى دار السلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من طبيعة الخلق الرجوع إلى الله فى الشدائد ، مما يؤكد أن الإيمان فطرة فى النفوس .

٢ ـ المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ؛ لأنه لا يملك الأسباب ؛ ولأنه يرجع حتما إلى رب الأرباب .

٣ ـ متاع الدنيا قليل زائل ، فلا نغتر بها وإنما نتخذها فرصة للعمل الصالح وتحقيق السعادة فى دار السلام .

٤ ـ من مكر مكر الله به ، والله أسرع مكراً وأكبر أثراً وضرراً .

٥ ـ التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها .

٦ ـ التحذير من الذنوب ، فإنها سبب الشقاء وسلب النعم .

٧ ـ إخلاص العبد فى الدعاء فى حال الشدة آية على أن التوحيد أصل والشرك طارئ .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
٢١٢

معانى الكلمات :

الحسنى : الجنة .

وزيادة : التمتع بالنظر إلى الرب الكريم .

يرهق : يغشى ويغطى .

قتر : الغبار وكدرة اللون .

ذلة : كآبة الانكسار .

أغشيت : ألبست .

فزيلنا : ميزنا ، وفرقنا .

تبلو : تعلم أو تشاهد .

فأنى تصرفون : كيف تختارون الانصراف عن الحق .

حقت : وجبت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى .

٢ ـ بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران .

٣ ـ تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق واضح له .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات كلها تعطى فى طابعها العام لمسات وجدانية متتابعة تنتهى كلها إلى هدف واحد: مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر والعدل فيه، ويكشف السياق هنا عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين ، ويكشف عن رحمة الله وفضله وعن قسطه وعدله فى جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القانون الكونى المؤدى إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف

قبل أن يفصل فى أمر الخلق ، ولا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . وأولئك أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما الذين كسبوا السيئات لا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء ولكن ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ .. ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهم وتركبهم وتكربهم ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ نفاذاً لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق، ويخالف الناموس ، ثم ترسم الآيات صورة حسية للظلام النفسى والكرب والكدرة التى تعلو وجه المكروب المرعوب كأنما أخذ من الليل المظلم قطعًا رقعاً غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه مكسوة بأغشية من هذا الليل البهيم . وذلك جزاء المبعدين فى هذا الظلام ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ ملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وتحكى الآيات قصتهم يوم القيامة ، وموقف الخزى الذى يكونون فيه وهم محشورون جميعاً الكفار والشركاء .. وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم « شركاءهم » تهكماً من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء لله .

وفى موقف الحشر لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء ليبرئوا أنفسهم من الجريمة ، جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وفى هذا الموقف المكشوف والمشهود تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة ، وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل ، وهناك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له أثر .

ومن مشهد الحشر الذى تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن الله هو المهيمن على الموقف وما فيه . ينتقل السياق إلى واقعهم الذى يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التى يعلمونها ، وإلى المشاهد التى يرونها فى الحياة أبل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله .

ويقول صاحب الظلال : ولقد مرّ أن مشركى العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ؛ ليصحح لهم عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى ـ ذلك الخلط والضلال .

إن النفس حين تنفصل عن منهج الله وطاعته ، وحين تستبدبها الأهواء ، والمصالح تعمى عن رؤية الحق حتى لو كان كان أمامها ، بالرغم من إقرارهم بأن الله الذى يرزقهم ، هو الذى منح حاستى السمع والبصر وهو حاستًا الإنسان الرئيستان، بل يرون مشهد الميلاد والإحياء كل يوم، وتدبير أمور الكون ، وكلها أمور متجددة لا تنقطع .

ونعود مرة أخرى إلى بداية السياق لنقف مع بعض الفوائد التربوية للآيات ، فيقول صاحب الأساس فى تفسير الزيادة فى قوله ـ تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ يقول : روى الإمام أحمد عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادٍ منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويُجِرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » [هكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة] .

وروى ابن جرير ، عن عطاء عن كعب بن عجرة ، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله ـ عز وجل » [رواه ابن أبى حاتم] .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ : أى : لا واسطة بين الحق والضلال ، فمن تخطى الحقوق وقع فى الضلال ، فالله الحق وكل معبود سواه باطل ، ورسوله الحق فكل ما يناقض ذلك باطل . ووحيه الحق فكل ما خالفه باطل والعبودية له هى الحق فكل عبودية لغيره باطلة ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الضلال ، والباطل ، عن التوحيد إلى الشرك ، عن اتباع الرسول إلى اتباع الشيطان ، عن اتباع الوحى إلى اتباع الهوى .

لذا وجبت وثبتت كلمة الله على الذين فسقوا وتمردوا فى كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه هى كلمة الله الأزلية أن الفاسق لا يستأهل الهداية ، ولا يهديه الله ـ نسأل الله العافية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجازى الله الذين أحسنوا بما يزيد عن إحسانهم ـ فضلاً من الله وكرما ، والله يحب المحسنين ، بينما الذين عملوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ـ عدلاً من الله ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(الكهف : ٤٩) .

٢ ـ فى عرضات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت ، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف .

٣ ـ التوغل فى الشر والفساد يصبح طبعاً لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به .

٤ ـ ليس بعد الحق إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال .

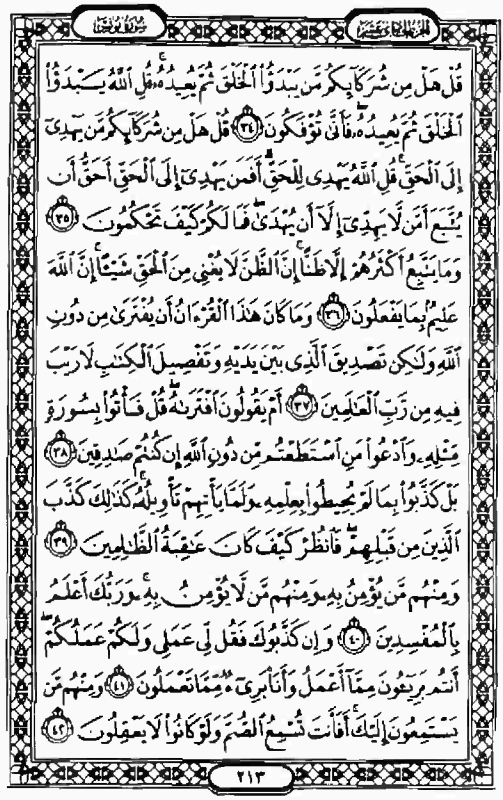
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

معانى الكلمات :

تؤفكون : تصرفون .

لا ريب فيه : لا شك فيه .

يأتيهم تأويله : يتبين لهم عاقبته .

ومنهم من يؤمن به : ومن المكذبين من يؤمن به سراً ، ولكن يجاهر بالكفر به عناداً.

الصم : الذين لا يسمعون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تقرير عقيدة الوحى وإثبات نبوة محمد ﷺ .

٢ ـ إثبات أن القرآن مصدر كل الكتب السماوية قبله من لدن الله ـ تعالى .

٣ ـ أن نعلم أن الظن لا يقبل فى العقائد بل لابد من العلم اليقينى فيها .

المحتوى التربوى :

ويستمر السياق فى عرض مظاهر قدرة الله ، والرد على الذين اتخذوا شركاء من دون الله ، فيوجه إليهم السؤال ارتكاناً على مسلماتهم الأولى ، ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنما يقرره لهم اعتماداً على وضوح الرؤية والنتائج بعد تسليمهم بالمقدمات ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؟ وهم مسلمون بأن الله هو الذى يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، ولكن حكمة الله الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين فى هذه الأرض، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم، وسيرهم على المنهج أو انحرافهم عنه ، إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم ، وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد فى حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته ، ولابد من

تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، هم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحى من الميت ، والحياة الأخرى قريبة الشبه بإخراج الحى من الميت الذى يسلمون به .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ، وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .. فأين تتوجهون بعيداً عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ .

فينزل كتاباً ، ويرسل رسولاً ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ، ويكشف عن آيات الله فى الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة كما هو معهود لكم من رسوله الذى جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؟ ومن هنا تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ ؟

ثم يعقب الله على ما سبق بتقرير واقعهم فى النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد ، فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهى لا تُغنى من الحق شيئاً .

فهم يظنون أن لله شركاء ، ولا يحققون هذا الظن ولا يتمنونه عملاً ولا عقلاً ، وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة .

ولا يمنحون هم هذه الخرافة ، وهم يظنون أن الله لا يوُحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ، وهكذا يعيشون فى مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئاً والله وحده هو الذى يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم .

وتفريعاً على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق فى جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفى التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله وحده وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله ، وتثنى بوصمهم بالتسرع فى الحكم على ما لم يعلموه يقينا أو يحققوه ، وتثلث بإثبات حالتهم فى مواجهة القرآن ، وتثبيت الرسول ﷺ على خطته ـ أياً كانت استجابتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهى بالتبئيس من الفريق الضال والإيمان إلى مصيرهم الذى لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقون بما هم فيه من ضلال .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى العقيدة التى جاء بها لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هى التى تملك الإتيان به هى قدرة الله ، القدرة التى تحيط بالأوائل والأواخر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص .

ويقول صاحب الأساس : ولما نعى الله على السائرين وراء الظنون والأوهام ، ولما كان الطريق للخلاص من ذلك هو القرآن فقد قال الله بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ

مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى ما صح وما استقام فى منطق العقل أن يكون مثل هذا القرآن فى علو أمره ، وإعجازه ، وكثرة معجزاته منسوباً إلى الله كذباً ، فهذا القرآن بفصاحته وبلاغته وحلاوته واشتماله على ما اشتمل عليه لا يكون إلا من عند الله . ولكن أنزل ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المتقدمة ، مصدقاً لها ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع من التحريف والتبديل فيها .

وبهذا تقرر الآيات الثلاث أن الله هو الهادى ، وأن من مظاهر هدايته هذا القرآن ، وأن من يتبع غير هدايته فهو فى ضلال . فيا أيها المتعجبون أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً اعلموا ذلك، فالحجة قائمة عليكم أن هذا القرآن من عند الله ، فلا تتعجبوا ، فإن عجبكم فى غير محله ، وهكذا أقامت الآيات الحجة على الكافرين فى أمر الوحدانية واليوم الآخر والرسول والقرآن ؛ وتوضيح الحق فى هذه الأشياء ضرورى لتحطيم فكرة الكافرين فى العجب من أن ينزل الله وحياً، ويرسل رسوله مبشراً ومنذراً .

ويمضى السياق فى تقرير نبوة النبى ﷺ قال ـ تعالى ـ من خطاب رسوله ليُسلِّيه ويصبِّره على عدم إيمان قومه مع ظهور الأدلة وقوة البراهين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ أى بالقرآن وبالنبى ـ أيضاً إذ الإيمان بواحد يستلزم الإيمان بالثانى ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ ، وهذا إخبار غيب ، ثم كما أخبر ـ تعالى ـ فقد آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر . والله عليم بهؤلاء المعاندين المفسدين ، فإن استمروا فى تكذيبهم لك فلا تحفل بهم وقل : ﴿ لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . فإذا كان هناك عقاب دنيوى تسلم منه ، ويهلكون هم به » .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وهذا الكلام فيه تبشير للنبى ﷺ بأنه مع هذه الحال الحالكة المظلمة سيكون من يؤمن ومن يجدد إيمانكم فى كل الأزمان ويصدق بالقرآن ويذعن له ، فالقرآن باقٍ خالد محفوظ ، ونور يهدى ما بقى الإنسان فى هذه الأرض ... ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ علمًا دقيقًا محيطًا بالذين لا يؤمنون ، وعبر بالمفسدين ؛ لبيان أن فى طلبهم الإفساد فى الأرض ومنع الإصلاح فيها » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يقبل الظن فى العقائد بل لابد من العلم اليقينى فيها .

٢ ـ كراهية القول بالظن والعمل به وفى الحديث:« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » .

٣ ـ من أدلة القرآن على أنه وحى من عند الله تحدى الله العرب بالإتيان بسورة واحدة فى فصاحته وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك .

٤ ـ من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة ، وعدم التناقض معها إذ هى من مصدر واحد وهو الله رب العالمين .

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

٢١٤

معانى الكلمات :

ينظر إليك : يشاهد دلائل نبوتك الواضحة .

شهيد : مطلع .

بالقسط : بالعدل .

أجل : مدة معلومة لهلاكهم .

بياتاً : وقت البيات أى ليلاً .

يستنبئونك : يستخبرونك عن العذاب .

إى وربى : نعم وربى .

وما أنتم بمعجزين : وما أنتم بفائتين من عذاب الله بالهرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مشاهد من يوم القيامة ونتدبرها ونستعد لها .

٢ ـ أن نحسن العمل فهو معروض على الله يوم القيامة والشهود حجة لنا أو علينا .

٣ ـ أن نعلم علم اليقين أن الله هو الضار النافع، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ولكل إنسان أجل، ولكل أجل كتاب .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات تستعرض حال بعضهم من الرسول ﷺ ، وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يعود السمع والنظر بشىء ، ولا يهتدون إلى الطريق ، إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا ـ **كما يقول صاحب الظلال** : إن هؤلاء لكثير ، فى كل زمان وفى كل مكان ، والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً ؛ لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة لا اتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدى حقيقة وظيفتها . والرسول ﷺ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمى . فذلك من شأن الله وحده ـ عز وجل ـ والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة ، وأعطاهم الأسماع

والأبصار والعقول ليهتدوا بها ؛ فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التى لا تتخلف ولا تحابى ، ولقوا جزاءهم عدلاً ولم يظلمهم الله شيئاً .

وفى هذه الآيات تسرية عن رسول الله ﷺ مما يجده فى نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه فى الجهد، ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمى ، وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل فى اختصاص الله .

وفيها كذلك تحديد حاسم لطبيعة العبودية ومجالها ـ حتى ولو تمثلت فى شخص رسول الله ، فهو عبد من عباد الله لا قدرة له خارج مجال العبودية ، والأمر كله لله .

بعد ذلك يستعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التى تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم ، رحلة سريعة قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصلية ، وترسم الآيات تشبيها للحياة الدنيا وللناس الذين دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف .

وفى ظل المشهد تبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة ، وكذبوا بلقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا فى تلك الرحلة ، بل تلك الومضة ـ فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشىء يلقون به ربهم ؛ ولم يستعدوا كذلك بشىء للإقامة الطويلة فى الدار الباقية : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، ينتقل السياق لتقرير حقيقة مهمة وهى أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذى كلف الرسول ﷺ أن يبلغه لهم ، فى حياته أو بعد وفاته ، فالمرجع إلى الله فى الحالين ، وهو شهيد على يفعلون فى حضور الرسول بالحياة ، وفى غيبته بالوفاة . فلن يضيع شىء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول ﷺ مما يوعدون .

وحقيقة أخرى يقررها السياق وهى أن أمر العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها كله لله ، وأن ليس لك ـ للرسول ﷺ ـ من الأمر شىء .ودورك فيها هو البلاغ، أما ما وراء ذلك فكله لله، وقد ينقضى أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتما على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . هذا له وحده ـ سبحانه ! أما أنت ـ وكل رسول ـ فعليك البلاغ ، ثم يمضى الرسول ويدع الأمر كله لله ، ذلك كى يعلم العبيد مجالهم وكى لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم فى الدعوة ، ومهما تعرضوا فيها من عذاب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ؛ وقد كانوا يسألون فى تحدٍ واستعجال طالبين وقوع ما يوعدهم به النبى ﷺ من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين : والجواب : أن الأمر لله يحقق وعيده فى الوقت الذى يشاؤه وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذى أجله لا يُستعجل .

فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يقول صاحب الظلال : الأجل قد ينتهى بالهلاك للحى ، هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية ، وقد ينتهى بالهلاك المعنوى ، هلاك الهزيمة والضياع ، وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائما فتضمحل وتنمحى شخصيتها وتنتهى إلى اندثارها كاملة ، وإن بقيت كأفراد . وكل أولئك وفق سنة الله التى لا تتبدل .

وينقلهم السياق من موقف السائل المستهزئ المتحدى ، إلى موقف المهدَّد الذى قد يفاجئه المحظور فى كل لحظة من الليل أو النهار ، وبينما هم فى مفاجأة السؤال ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلاً ـ وهو لم يقع بعد ـ ولكن كما يقول صاحب الظلال : التصور القرآنى يرسمه واقعاً ، ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ !

فكأنما وقع ، وكأنما قد آمنوا به،وكأنما يخاطبون بهذا التبكيت فى مشهد حاضر يشهدونه الآن! وتتمة المشهد فى ساحة الحساب والعذاب ، وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول ـ إن كان هذا الوعيد حقاً ـ فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين ، والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى يوم القيامة يستقبل الناس ما قضوه فى حياتهم الدنيا وفى قبورهم، كأنه ساعة من نهار .

٢ ـ يوم القيامة لا يعرف القربات بعضهم بعضاً ، ولكن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه مهتماً بما يصير إليه أمره .

٣ ـ كل أمة تعرض يوم القيامة على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر ، شاهد عليها ، وحفظة من الملائكة شهود أيضاً .

٤ ـ لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يملك الضر والنفع إلا هو ، وقد حدد لكل إنسان أجلاً لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

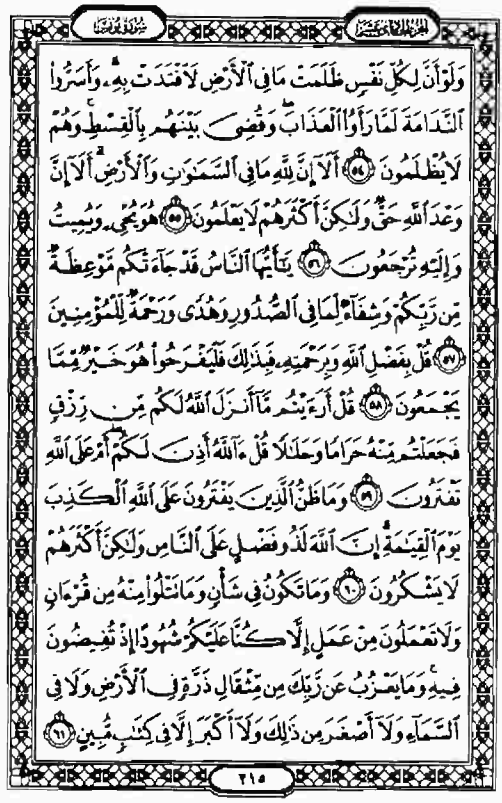
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

٢١٥

معانى الكلمات :

أسروا الندامة : أخفوا الغم والحسرة .

بالقسط : بالعدل .

موعظة : القرآن .

أذن لكم:أعلمكم بهذا التحليل والتحريم.

تفترون : تكذبون .

شهوداً : رقباء .

تفيضون : تخوضون .

ما يعزب : ما يغيب .

مثقال ذرة : وزن قطعة الهباء . وهو ما يُرى متطايراً فى ضوء الشمس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم علم اليقين أن الذى ينفع الإنسان يوم القيامة ليس حسبه ولا ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .

٢ ـ أن نعتقد أن وعد الله حق، وهو القادر العليم، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

٣ ـ أن نوقن أن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، ولا يغيب عن علمه ـ تعالى ـ مثقال ذرة فى أرض أو سماء .

المحتوى التربوى :

بينما يتحدث السياق عن استنباء المشركين للرسول وجوابه عليهم ، إذا نحن فجأة مع السياق فى نقلة من نقلات الأسلوب القرآنى المصورة فى ساحة الحساب والجزاء مبدئياً على وجه الفرض والتقدير : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ فلا يُقبل منها حتى على فرض وجوده معها،ولا تكتمل الآية حتى يكون الغرض قد وقع وقضى الأمر:﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط فى أيديهم:﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ويأتى التعقيب المؤكد للحشر والحساب ، جولة أخرى مع القدرة فى بعض مجاليها فى السماء والأرض وفى الحياة والموت ؛ جولة عابرة لتوكيد معنى القدرة الكفيلة بتحقيق الوعد ، ثم نداء عام للناس أجمعين للانتفاع بهذا القرآن الذى يحمل لهم الموعظة والهدى وشفاء الصدور .

وبهذا الفضل الذى آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التى أفاضها عليهم من الإيمان فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذى يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة ، إن ذلك هو الفرح العلوى الذى يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها ؛ والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها . إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء إليه مطمحهم أعلى من هذه الأعراض وآفاقهم أسمىٰ من دنيا الأرض ، الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هى الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

يقول صاحب الظلال : إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هى التى تحدد مكان الناس فى هذه الأرض ـ فى الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم فى الحياة الأخرى إن الأرزاق المادية ، والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية . . .

إن المنهج الذى يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذى يحدد قيمة الأرزاق المادية فى حياتهم هو الذى يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء كما يجعلها سبباً للرقى الإنسانى ، أو مزلقاً للارتكاس ! ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين فى حياة أهله .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين فى هداه الذى يشفى الصدور ، ويحرر الرقاب ، ويعلى من القيم الإنسانية فى الإنسان ، وفى ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذى أعطاه للناس فى الأرض ؛ وبالتصنيع الذى يوفر الإنتاج المادى وبالتيسيرات المادية التى تقلل من شدة اللوح وبسائر هذه القيم التى تدق الجاهلية حولها الطبول فى الأرض! وبدون وجود تلك القيمة العليا ـ الدين ـ وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم فى إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

ويتعرض السياق للجاهلية وهى تزاول حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند الله ، ولكن وفق أهواء البشر واعتدائهم على خصائص الله ـ سبحانه ـ يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه ، فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذى يتصورون أن يكون فى شأنهم يوم القيامة !! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية !

والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادى الذى أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التى تحكم هذه المصادر، وأقدرهم كذلك على التنويع فى أشكاله ، والتحليل والتركيب فى مادته لتنويع هذه الأشكال وكله فى الكون وفيهم من رزق الله .

ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك.. فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه، وإذا هم يشركون به غيره ، ثم يشقون فى النهاية بهذا كله ، لأنهم لا ينتفعون بهذا الذى هو شفاء لما فى الصدور !

لا يشكرون ، والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذى لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناول قدرته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والسياق يطرح هذا الأنس والأمن والطمأنينة فى جوار الله ليخرج منها إلى طمأنة الرسول ﷺ ومن معه أنهم فى رعاية الله وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون .

ويقول **الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير** : « ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ والاستدراك هنا معناه أنه كان حقا عليهم أن يشكروا ، فاستدرك سبحانه على هذه النتيجة المنطقية وقرر أن أكثرهم عدلوا عنها وانحرفوا عن مسلكها إلى الضلال فكانوا لا يشكرون وجحدوا ، وكان التعبير بالمضارع ؛ لدوام عدم شكرهم وتكرر جحودهم وتجدده آنًا بعد آن » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يوم القيامة يوم الحسرة والندامة يود الكافر فيه لو افتدى نفسه من عذاب الله ولو بملء الأرض ذهباً ، ولكن الله الذى يملك كل شىء ليس فى حاجة إلى فدائهم ، ولن يقبل شيئاً من أحد ؛ لأنه الغنى الحميد .

٢ ـ وعد الله حق ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهو القادر العليم الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٣ ـ القرآن العظيم نعمة كبرى أنعم الله بها على العالمين بما فيه من المواعظ والأحكام والتشريع والأوامر والنواهى وهو شفاء لما فى الصدور ، وبه تحصل الهداية والرحمة للمؤمنين المصدقين بما فيها .

٤ ـ الله يعلم كل ما يأتيه الإنسان من خير أو شر ، ولا يغيب عن علمه ـ تعالى ـ مثقال ذرة فى أرض أو سماء.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ
ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾
٢١٦

معانى الكلمات :

أولياء الله : الذين يتولونه بالطاعة ، ويتولاهم بالكرامة .

البشرى : ما بُشر به المتقون .

لا تبديل لكلمات الله : لا تغيير ولا إخلاف لموعوده .

يخرصون : يكذبون .

لآيات : لعلامات .

سلطان : حجة وبرهان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ولاية الله بطاعته وموافقته فى محابه ومكارهه .

٢ ـ أن نعرف أن الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى لا أهل البدع والمنكرات .

٣ ـ أن نتدبر مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ فى الخلق بغية أن يغمر الإيمان قلوبنا .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى ظل الأنس الربانى ، وفى طمأنينة القرب من الله ، وتعلن إعلانها الجاهر : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا فى كل شأن وفى كل عمل وفى كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، والمؤمنون به الأتقياء المراقبون له فى السر والعلن ، كيف يخافون وكيف يحزنون ؛ وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه وعلام يحزنون ومما يخافون ؟ والبشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذى لا يتبدل ـ لا تبديل لكلمات الله .

ويقول صاحب الظلال : إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان، المتقون حق التقوى ، والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه . وهكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله ـ لا كما يفهمه العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء !

وفى ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبى ﷺ وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا فى ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين ـ كما فى الموضع الآخر ؛ لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه فيفرده بالعزة جميعاً ـ وهى أصل لله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه ـ ليجرد منها الناس جميعاً ـ ومشركو قريش العتاة داخلون فى الناس . أما الرسول ﷺ فهو فى الحماية الإلهية التى أضفاها على أوليائه فلا يحزن لما يقولون ، والله معه وهو السميع العليم ، الذى يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمى أولياءه مما يُقال ومما يكاد وفى ملك يده كل من فى السموات وكل من فى الأرض من إنس وجن وملائكة ومن عصاة وتقاة . فكل ذى قوة من خلقه داخل فى سلطانه وملكه .

وهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا فى حقيقتهم شركاء لله فى شىء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة . ويلفت السياق نظرهم إلى بعض مجالى القدرة فى المشاهد الكونية التى يغفل عنها الناس بالتكرار : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

والافتراء على الله بالشركاء يكون بنسبة ولد لله ـ سبحانه ـ وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة فى الدنيا ، وتنتهى بالعذاب فى الآخرة على طريقة القرآن . ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وعقيدة أن الله ـ سبحانه ـ له ولد ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور فى التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التى جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضى هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضى امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد ، والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون ، والولد

تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدى دورها فى عمارة الأرض ـ كما شاء الله ـ وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة . وليس شىء من ذلك كله متعلقا بالذات الإلهية . فلا الحاجة إلى الامتداد ـ ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة، ولا الحاجة إلى النصير،ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شىء مما يخطر على البال متعلقة بذات الله ـ تعالى .

ومن ثم كان الرد على فرية : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ .. هو : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون ، ويسمى البرهان سلطاناً ؛ لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان ، وهم ما عندهم من حجة ولا برهان على ما يقولون .

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها ، وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ؛ نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله .

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ، لا يفلحون أى فلاح ، لا يفلحون فى شعب أو طريق ، لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة . والفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ، وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشرية إلى أقصى الحيوانية . فذلك فلاح ظاهرى موقوت ، منحرف عن خط الرقى الذى يصل البشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من آمن بربه واتقاه صار من أهل طاعته ومن أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٢ ـ للكون سننه وقوانينه التى لا تتغير ولا تتبدل ، فمن اهتدى بها وصل ، لا تبديل لخلق الله .

٣ ـ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله ـ تعالى ـ ناصر دينه ما نصره أهله .

٤ ـ لا تستقيم الحياة بالظن والهوى ، وإنما بالعلم الهادف والعمل الدائب .

٥ ـ علينا أن نتدبر ملكوت الله من ليل ونهار ، وفصول وزروع وأفلاك ؛ليغمر الإيمان قلوبنا .

٦ ـ على المؤمن الداعى إلى الله ألا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته ؛ وليعلم أن العزة لله جميعاً وسوف يعزه بها ، ويذل أعداءه .

معانى الكلمات :

اتل : اقرأ .

كبر عليك : عظم وشق عليك .

مقامى : إقامتى بينكم زمناً طويلاً .

غمة : ضيقاً شديداً .

اقضوا إلىّ : أدوا إلىّ ما تريدونه .

نطبع : نختم .

ملئه : قومه .

لتلفتنا : لتصرفنا وتردنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم .

٢ ـ ذم الاستكبار وأن ندرك أنه سبب كثير من الظلم والإجرام .

٣ ـ أن نوقن أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات طرفاً من قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وطرفاً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، تتحقق فيها عاقبة التكذيب ، والقضاء فى أمر الأمة بعد مجىء رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة .

وقد انتهى الدرس الماضى بتكليف الرسول ﷺ أن يُعلن عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء ، ويواصل السياق بتكليف جديد : أن يقص عليهم ﷺ نبأ نوح فيما يختص بتحديه لقومه ، ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلافهم فى الأرض ، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عدداً .

والحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح ، هى الحلقة الأخيرة : حلقة التحدى الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل ، والتكذيب الطويل ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة، ولا من ركب فيها ولا الطوفان ؛ لأن الهدف هو إبراز التحدى والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة .

فيقول نوح عليه السلام لقومه : إن كان الأمر بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائى فيكم ودعوتى لكم ؛ وتذكيرى لكم بآيات الله ، فأنتم وما تريدون ، وأنا ماض فى طريقى ودعوتى لا أعتمد إلا على الله . ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ عليه وحده فهو حسبى دون النصراء والأولياء . فتدبروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين ، وليكن الموقف واضحاً فى نفوسكم ، وما تعتزمونه مقرر لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد ، ونفذوا ما اعتزمتم بشأنى وما دبرتم ولا تمهلونى للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادى ، هو اعتمادى على الله وحده دون سواه.

يقول صاحب الظلال : إنه التحدى الصريح المثير ، الذى لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الثقة من عدته ؛ حتى ليغرى خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح عليه السلام من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟

كان معه الإيمان .. القوة التى تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير ، وكان وراءه الله الذى لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذى يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدى غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً ، إنما هو تحدى القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التى تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة فى رسل الله ، وإنه لينبغى لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض . وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده فى وجه الطاغوت أياً كان ! ولن يضرهم الطاغوت إلاَّ أذى ـ ابتلاء من الله لا عجزاً منه ـ سبحانه ـ عن نصرة أوليائه ، ولا تركاً لهم ليسلمهم إلى أعدائه ، ولكنه الابتلاء الذى يمحص القلوب والصفوف ، ثم تعود الكرة للمؤمنين ـ ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

ثم يخاطبهم قائلاً : إن أعرضتم عنى وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية ، فينقص أجرى بتوليكم ، ولن يزحزحنى هذا عن عقيدتى ، فقد أمرت أن أسلم نفسى كلها لله ، وكانت العاقبة نجاته هو ومن معه فى الفلك ـ وهم المؤمنون ـ واستخلافهم فى الأرض

على قلتهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . لينظر من ينظر : ﴿ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين .

هذه سنة الله فى الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذاهو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجىء وهى ماضية فى الطريق ، والله لا يترك أولياءه ـ سبحانه ـ ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه ولكن يعلمهم ويدربهم ويزودهم فى الابتلاء بزاد الطريق .

فأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده على نطاق أوسع مما فى قصة نوح عليه السلام .

والحلقة المعروضة هنا من القصة ، مقسمة إلى خمسة مواقف ؛ يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى السورة على النحو الذى عرضت به .

والآيات التى بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هى الآيات التسع المذكورة فى سورة الأعراف ، وكان ردهم ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ و ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

واستنكر عليهم موسى هذا الفهم للحق الذى جاءهم من عند الله ؛ لأن السحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ولا يتضمن منهاجاً تنظيميًا للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس ، وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التى تصدهم عن التسليم بآيات الله : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم ، وتعددت مناهجهم .

٢ ـ إذا اختار الإنسان الكفر طبع الله على قلبه ، فلا يصل إليه نور الإيمان .

٣ ـ ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة .

٤ ـ بيان سنة الله فى البشر ، وهى أن التمادى فى الشر والفساد والظلم يوجب الختم على القلوب ، فيحرم العبد الإيمان والهداية .

٥ ـ تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ
آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ
وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
٢١٨

معانى الكلمات :

ألقوا : رموا حبالهم وعصيهم على الأرض .

سيبطله : سيمحقه .

ذرية : طائفة .

عال : متكبر .

أن تبوءا لقومكما : أن اتخذا واجعلا لهم .

اطمس على أموالهم : أهلكها .

أشدد على قلوبهم : اطبع عليهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتوكل على الله فى كل أمورنا لتحمل عبء الدعوة إلى الله والقيام بطاعته .

٢ ـ بيان مشروعية التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته .

٣ ـ أن نستعين بالصبر والصلاة عند الشدائد وفى كل الأحوال .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مع أحداث قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه وتعلقهم بحكاية السحر ، وأرادوا ـ فى أغلب الظن ـ أن يغرقوا الجماهير بها ؛ بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ؛ ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً فتبطل دعوته ، وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة .

ونلاحظ فى الآيات هنا اختصاراً فى موقف المباراة؛لأن نهايتها هى المقصودة ، وفى قول موسى: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ .. رد على تهمة السحر التى وجهت إليه ، فالسحر هذا الذى يصنعه هؤلاء، وتتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو

عمل غير صالح ، وقد كان ، وبطل السحر وعلا الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال .

وهنا يبدأ فاصل جديد من القصة يرفع فيه الستار على فئة قليلة : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ آمنت معه لله رب العالمين ، **ويقول صاحب الأساس**: إن للمفسرين فى هذا قولين : فعلى القول الأول يكون المراد ـ والله أعلم ـ أن الذين آمنوا لموسى ، وتحمسوا له ، وأظهروا هذا الإيمان هم الشباب من قومه ، وإن كان كل بنى إسرائيل قد آمنوا لموسى نوع إيمان ، وعلى القول الثانى : يكون الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون هم طائفة الشباب ـ كمؤمن آل فرعون التى تمر قصته فى سورة غافر .

ويقول صاحب الظلال : يلاحظ من قوله ـ تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أن الذين يستجيبون للدعوات الإصلاحية هم الشباب ؛ لسلامة فطرتهم ، فنفوس الشباب أقرب لأن تقبل الحق ، ومن ثم فعلى أصحاب الحق أن يدركوا معنى النصرة ، وألا يتطلعوا إلى أجيال ليست مرشحة لأن تفعل شيئاً ؛ لأنها تجاوزت دور الفاعلية ، على أن صاحب الدعوة عليه أن يبلّغ دعوته للجميع .

يقول صاحب الأساس : وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين هذا دليل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن وفى هذا درس عظيم ، فبدون التوكل على الله لا تستطيع أمة ولا جماعة ، ولا فرد أن تحقق هدفاً يفرضه الإسلام ، أو تتخلص من أوضاع ظالمة ، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ وتوجهوا إلى الله بالدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أى لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ولا تظفرهم بنا ولا تسلطهم علينا ؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل ، وهناك تفسير آخر لمجاهد وهو : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، ودعوا دعوة أخرى ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى وخلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أى الذين كفروا الحق وستروه ، ودعوا بالعافية والنجاة وهكذا المؤمن كثير الإشفاق ، راغب بفضل الله ، حريص على العافية ، يطلبها من الله ، وإذا وضعه الله فى ظرف قام بأدب الوقت فيه ، من صبر أو تحمل أو قتال ، أو مقابلة بمثل .

والقرآن بين العبادة والتوكل يفيد أنهما مرتبطان ببعضها ، فمن لا عبادة له لا توكل له ، ومن ثم فإن الدعاة والمصلحين والمربيّن عليهم أن يعلقوا قلوب أتباعهم بالعبادة ؛ ويقودوهم عليها ليتحققوا بالتوكل ليستطيعوا تحمل أعباء مراحل الحياة وما فيها .

وينتقل السياق لتوجيه موسى عليه السلام إلى التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية **ويقول صاحب الظلال** : وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات ،

ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هى السلاح الأول فى المعركة ، وأن الأداة الحربية فى يد الجندى الخائر العقيدة لا تساوى شيئاً فى ساعة الشدة .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة هذه الآيات : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ أن هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة ، فعلى القول الأول فى تفسير القبلة : نفهم أنّ البيوت تنوب مناب الأماكن العامة ، إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن، فمثلاً فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ـ وخاصة البلدان التى خضعت للأنظمة الشيوعية ـ نجد كلمة الحق محظورة فى المسجد ، ومضيَّقاً عليها ، حتى حلقات العلم يحال دونها ، وفى مثل هذا الظرف فالبيوت تقوم مقام المساجد ، والدور العامة ، ولكن لا ننسى أن المساجد هى معاقل الإسلام ، فلا نتخلى عنها إلا كتخلينا عن معقل أو حصن ، وإلا فالأصل أن نحيى المسجد ورسالته ، وإنما هى حالة اضطرار كما هنا ، وهى ترسم الطريق لكل حالة مشابهة .

وهذه التجربة التى يعرضها الله على العصبة المؤمنة ؛ ليكون لها أسوة ليست خاصة لبنى إسرائيل ، فهى إيمانية خالصة ، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين فى المجتمع الجاهلى ، وقد عمّت الفتنة وتجبّر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون فى هذه الفترة .

يقول صاحب الظلال ـ بتصرف : فى دعاء موسى عليه السلام على قومه لفتة للدعاة بأن كثيرًا من إضلال الناس عن الله يكون بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الآخرين ، وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم ووجود النعمة فى أيدى المفسدين يزعزع كثيرًا من القلوب التى لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، فيطلب موسى عليه السلام لوقف هذا الإضلال أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب التوكل على الله ـ تعالى ـ لتحمل عبء الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والقيام بطاعته .

٢ ـ مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته .

٣ ـ الاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد ، والحذر من فتنة الأموال وزينة الحياة الدنيا .

٤ ـ جواز الصلاة فى البيوت عند الضرورة (فى تشريع من سبقنا وفى الشريعة الإسلامية كذلك) .

٥ ـ ثقة أهل الحق فى أنفسهم ، وثقتهم فى نصر الله لهم ، وأن الباطل لا أساس له ولا ثبات .

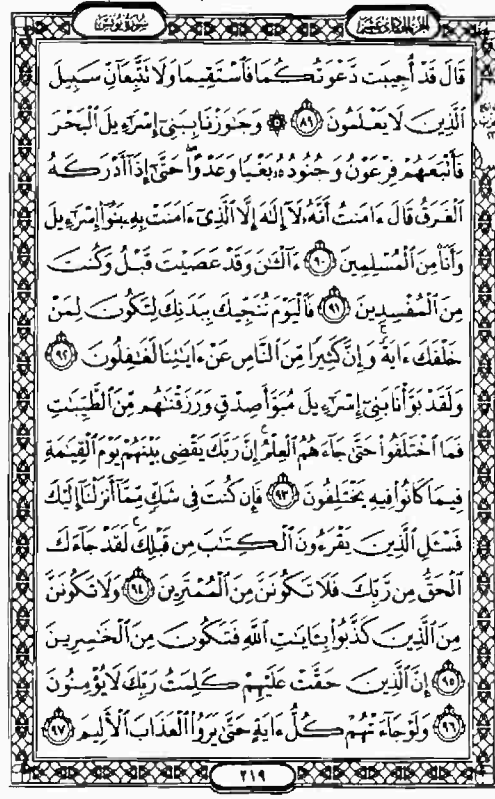
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
٢١٩

معانى الكلمات :

سبيل : طريق .

أتبعهم : لحقهم .

بغياً وعدوا : ظلماً واعتداءً .

آية : عبرة ونكالاً .

بوأنا : أنزلنا وأسكنا .

مبوأ صدق : منزلاً صالحاً مرضياً .

الممترين : الشاكين ، المضطربين .

حقت : وجبت .

كلمة ربك : بالعذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نجدد التوبة لله ـ دائماً ـ قبل فوات الأوان .

٢ ـ أن نتحرى الكتاب والسنة فى كل قول وعمل ونحذر طرق أهل الضلال .

٣ ـ بيان حرمة الاختلاف فى الدين والتأكيد على وحدة الصف والارتباط بوشائج المحبة فى الدين .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وقد اتجه موسى إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يُرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه الذين يملكون المال والزينة اللذين تضعف إزاءهما قلوب الكافرين فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، فاتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشدد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء وقضى الأمر .

ويأتى المشهد التالى بعد الدعاء وهو مشهد التنفيذ وكما يقول صاحب الظلال : إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير فى قصة التحدى والتكذيب ، وفيه بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية ، وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التى لاينفع بعدها ندم ولا توبة ، ويصور المشهد صورة البغى والعدو ، ومنها مباشرة إلى مشهد الغرق فى ومضة ومعاينة الموت ، فلقد سقط عن فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى . كل أرديته التى تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد فى استسلام : وقال : ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ المسلمين !

وهنا لطيفة أوردها صاحب الأساس فى التفسير بمناسبة قول فرعون عند الغرق والرد عليه: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ قال : قال الألوسى : والقائل له ذلك قيل : هو الله ـ تعالى ، وقيل : هو جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه ميكائيل عليه السلام ، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : قال لى جبريل عليه السلام : ما أبغضت شيئاً من خلق الله ـ تعالى ـ ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون ، فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها فى فيه ، فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً منى ، فأمر ميكائيل فأتاه فقال آلآن وعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : « قال رسول الله ﷺ قال لى جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر ، فأدسّه فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » .

إن إساءة فرعون وعتوه قد بلغت مبلغاً جسيماً استحق به ما فعله به جبريل .

ويسدل الستار على المشهد النهائى فى المأساة . مأساة البغى والفساد والتحدى والعصيان ، ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بنى إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث فى أجيال ، فلقد بوأهم الله مبوأ صدق ، ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان ؛ فإن السياق لا يطيل فى عرض ما وقع بعد ذلك من بنى إسرائيل .

بعد ذلك يجىء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى الرسول ﷺ تثبيتاً بما حدث للرسل قبله ، وبياناً لعلة تكذيب قومه له أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبينات ، إنما هى سنة الله فى المكذبين من قبلهم ، وسنة الله فى خلق الإنسان باستعداده للخير والشر والهدى والضلال .

وفى الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ؛ فرد عنهم لعلّ فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان ، وينتهى بالخلاصة المستفادة من ذلك

القصص كله . أن سنة الله التى مضت فى الأولين ماضية فى الآخرين: عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسل ومن معهم من المؤمنين ـ حقاً كتبه الله على نفسه ، وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد .

لقد كان آخر الحديث عن بنى إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرؤونها فى كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ إن كان فى شك مما أنزل إليه من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله . فلديهم عنه علم ، مما يقرؤون .

ولكن الرسول ﷺ لم يكن فى شك مما أنزل الله إليه . أو كما روى عنه ﷺ لا أشك ولا أسأل ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان فى شك والتعقيب عليه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وفى هذا ما يكفيه لليقين ؟

فى قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ ﴾ يقول الشيخ أبو زهرة : « الشك هو الضيق ، ثم أطلق على التردد بين اليقين والإنكار ، لأنه يحدث فى النفس ضيقًا » .

ولكن هذا التوجيه كما يقول صاحب الظلال : يشى بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه فى مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبى طالب ، واشتد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريباً فى مكة بسبب موقف قريش العنيد ، وكل هذه ملابسات تلقى ظلالها على قلب رسول الله ﷺ فيسرى عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ دعاء الرسل على أقوامهم كان غضباً لله ولدينه ، ولم يكن يأساً ولا انتقاماً لأنفسهم .

٢ ـ لا يقبل الله توبة الذين لا يتوبون إلا عند خروج الروح ، أو بعد ظهور علامات الساعة الكبرى .

٣ ـ مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم .

٤ ـ حرمة اتباع طرق أهل الضلال ، وتقليد الجهال والسير وراءهم .

٥ ـ حرمة الاختلاف فى الدين إذا كان يؤدى إلى الانقسام والتعادى والتحارب .

٦ ـ فضل لا إله إلا الله ، فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقولها فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٢٠

معانى الكلمات :

إلا قوم يونس : لكن قوم يونس .

إلى حين : إلى وقت انقضاء آجالهم .

يجعل الرجس : يجعل العذاب .

النذر : جميع نذير أى الرسل .

خلوا من قبلهم : مضوا من الأمم .

حنيفاً : مائلاً عن الأديان الباطلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن سنن الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابى أحداً .

٢ ـ أن نوقن أن الله ـ عز وجل ـ يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعدله .

٣ ـ أن نتفكر فى نعم الله وآياته فإن ذلك مما يزيد الإيمان .

المحتوى التربوى :

كما عرضت الآيات سنن الله العامة فى هلاك الأمم التى لم ينفعها إيمانها ؛ لأنها آمنت بعد وقوع العذاب فلم يأت عن اختيار ، يعرض هنا فى هذه الآيات نموذجاً لقرية نفعها إيمانها وهى قرية يونس عليه السلام والآية تشير إلى أن قوم يونس كان يتهددهم عذاب مخز ، فلما آمنوا قبل وقوع العذاب كشفه الله عنهم ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل ، ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم ـ وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه .

ويقول صاحب الظلال : حسبنا هنا أن ندرك أمرين مهمين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق .

وثانيهما : أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى ، بل مضت ونفذت ؛ لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجىء ، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول ، فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها.

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان ، وهى أن الله ـ عز وجل ـ لو شاء لخلق هذا الجنس البشرى خلقة أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً وهو طريق الإيمان ـ كالملائكة مثلاً ، أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده إلى الإيمان ، ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة فى اختياره ولكن الإيمان متروك للاختيار ، لا يكره الرسول عليه أحداً ، لأنه لا مجال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ .

وهو سؤال للإنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون ، ويطرح السياق قضية أخرى ثابتة من سنن الله العامة وهى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وفق سننه الماضية التى بيناها ، فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت فى الطريق الآخر الذى لا يؤدى إليه ؛ لا لأنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص ، بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فى الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه .

ويدل على هذا عقب الآية فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجس عليهم والرجس أبشع الدنس الروحى،فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران ، ويزيد الأمر إيضاحاً بأن الآيات والنذر لا تُغنى عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهى معروضة أمامهم فى السموات والأرض .

ويقول صاحب الظلال : إن النظر إلى ما فى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ؛ زاد من الاستجابات والتأثرات ؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود ؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود ، وذلك كله فى الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله.

ولكن ماذا تجدى الآيات والنذر إذا استغفلت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقى فى الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنسانى بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟ !

ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما فى السموات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآنى لاستحياء القلب الإنسانى ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب ، ولكن أولئك المكذبين من الجاهلين العرب ـ وأمثالهم ـ لا يتدبرون ولا يستجيبون . فماذا ينتظرون ؟

إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف ، وقد ينظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لابد لهم من النكال ، وعلى الطرف الآخر تبقى البذرة المؤمنة وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب ، وتأتى خاتمة السورة بتكليف من الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ أن يعلن القواعد الرئيسية للعقيدة والتى دار حولها سياق السورة كلها ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . وأمره أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة : أنه ماضٍ فى خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ومن الحكاية إلى الأمر المباشر بأمره أن يقيم وجهه للدين حنيفاً متوجهاً إليه خالصاً له ، وينهاه عن الشرك ويأمره ألا يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ؛ لأنه إن فعل ذلك فهو إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابى وعدله لا يلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من حكمة الله ـ تعالى ـ أنه جعل الإنسان حراً مختاراً ؛ ليكون إما كافراً وإما مؤمناً .

٢ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعدله ، ولكنه لا يحاسب الناس إلا على ما عملوا من خير أو شر ، وإيمان أو كفر .

٣ ـ ضرورة التفكر فى نعم الله ، ودلائل قدرته من مطر ، وثمار ، وزروع ، وأزاهير ، وغير ذلك مما يقوى الإيمان .

٤ ـ لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه ، فلذا لا ينبغى للداعى أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا ؛ لأن الله كتب عذابهم أزلاً وقضى به .

٥ ـ على المؤمن ألا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس .

٦ ـ لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أراده الله له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

معانى الكلمات :

إن يمسسك : وإن يصبك .

بوكيل : بحفيظ .

أحكمت آياته : نظمت .

فصلت : فرقت فى التنزيل بالحكمة ولم تتنزل جملة واحدة.

من لدن : من عند .

أجل مسمى : الموت .

يثنون صدورهم : يطوونها على الكفر والعداوة .

ليستخفوا منه : جهلاً منهم باطلاعه عليهم .

يستغشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يوقن المسلم أن الخير كله بيد الله ، وأن الضر ملازم لسنن الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه .

٢ ـ أن يتعهد المسلم نفسه بالاستغفار والتوبة ، فهما طريقان للحياة السعيدة والرزق الموفور والأجر العظيم فى الآخرة .

٣ ـ أن يصنع المرء المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فلن يضيع عند الله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات فى ختامها الحديث عن سنن الله الجارية ، وهى أن الضر ملازم لهذه السنن حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك ، فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته ، فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر ـ إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة ، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته ، فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه فهذا الفضل يصيب من عباده من كانوا يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذى يغفر ما مضى